

الدراسات الإسلامية

المعد الرابع - المجلد الأربعون - الشتاء (أكتوبر - ديسمبر ٢٠٠٥م / رمضان - نوالقعدة ١٤٢٦هـ)

مجمع البحوث الإسلامية
الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد، باكستان



إشكالية التأويل في الأديان

رقية طه جابر العلواني

تمهيد:

يتناول هذا البحث دراسة نشأة علم تأويل النصوص الكتابية وتطوره في الفكر الديني في اليهودية والمسيحية والإسلام. كما يتناول المراحل التاريخية والعوامل الاجتماعية والظروف الفكرية والتيارات الفلسفية التي تزامنت مع التطورات التي مر بها هذا العلم في الفكر الغربي والإسلامي. وتتبع الدراسة المنهج التحليلي التاريخي في طرح هذا الموضوع، والعودة إلى المراجع المعتمدة لدى أهل الأديان في سبيل التوصل إلى نظرة موضوعية محايدة في التتبع والشرح والتفصيل قدر الإمكان.

والبحث إذ يقف على واحد من أهم المحاور في الفكر الديني: يحاول تقديم مساهمة نوعية في محاولة جادة لفهم الآخر وخلفيته وأبعاد تصوراتهِ لنصوصه الكتابية. ويظهر أثر هذا جليا عند محاولة البعض من الكتاب الماصرين تنزيل وتطبيق تلك المناهج على نصوص القرآن الكريم دون تمييز أو تفرقة بين طبيعة النصوص الكتابية من جهة وبين خطورة تبني المناهج الغربية وتطبيقها دون مراعاة فوارق بيئة الخطاب وطبيعته وغير ذلك من العوامل التي لا ينبغي تجاوزها.

فالدراصة من خلال تبنيها للنهج المقارن تحاول تقديم إسهام متميز في فهم أبعاد ومخاطر تبني المناهج الغربية في التأويل واستزاعها دون إدراك لطرفية البيئة والطبيعة التي أفرزتها.

مقدمة:

اتفق أتباع الديانات المختلفة من يهودية ومسيحية وإسلام على فهم وتأويل النصوص المقدسة لديهم، فهي تمثل لدى أصحابها المرجعية المصومة التي يمكن استنباط واستقاء الأحكام الشرعية منها. وما لا شك فيه أن المسار التأويلي للنصوص يختلف تبعا لعوامل عديدة منها: اللوروث الثقافي للذوول ذاته بكل ما يحمل من خلفيات علمية ودينية، والظروف السائدة إبان ظهور التأويلات المختلفة من اجتماعية وسياسية وثقافية ونحوها، إضافة إلى النص الكتابي ذاته من حيث الصداقية

التلمود: وهو عبارة عن روايات شفوية نقلت عبر العصور عن طريق سلسلة من التفات وقد تم جمعها بعد السيد المسيح بمائة وخمسين سنة في كتاب اللغزا وقد أدخلت عليه تعديلات كثيرة من قبل علماء فلسطين وبابل. وهناك العديد من الفروع عليه عُرفت بالقطار. فالتلمود يتكون من اللغزا والجمارا. والتلمود الذي يعتبر أكثر انتشارا وتداول اليوم هو تلمود بابل. وتتكل اجتهادات علماء اليهود وأخبارهم وتأويلاتهم لتلك النصوص سلطة تكاد تكون مطلقة في إجراء أي تعديل أو تحوير بل ونسخ لبعض النصوص الكتابية التوراتية.

أما في الديانة المسيحية فيعتبر الإنجيل هو الكتاب المقدس لديهم وغالب الروايات التاريخية تشير إلى ضياعه وقد ظهرت عوفا عنه عشرات الأناجيل في الفترة ما بين ٦٠-١٢٥م. ومطم هذه الأناجيل قد حُطِر تداوله إلا أربعة منها: إنجيل متى، مرقس، لوقا، يوحنا. إلا أن الإنجيل رغم الشكوك الدائرة حول صدقه حتى لدى أتباع المسيح عليه السلام، فهو يبقى معتقلا للمرجعية المسيحية لديهم كما انمقد إجماعهم على ذلك في مجمع ترانت في عام ١٥٤٥م: والأكثرية على أن عدد أسفاره سبعة وعشرون سفرا وجملة إصحاحاته ٢٦٠ وهي الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل ورسائل بولس الثلاثة عشر والرسائل الكاثوليكية.

أما النصوص في التريعة الإسلامية فالراد بها هنا خطاب القرآن الكريم أو السنة النبوية وقد اعتمد العلماء هذا المعنى للنصوص فسائر الأدلة الشرعية تعود في جعلها إلى آحاد هذه النصوص في الكتاب والسنة^(٣).

مفهوم التاويل:

وهو الفن الذي يُعرف باللغة الإنجليزية بـ Hermeneutics والهرمنيوطيقا نظرية تُبنى بشرح وفهم النصوص المقدسة أو الكتابية على وجه الخصوص^(٤).

في تعريف النصوص عند الأصوليين، راجع: رقية طه جابر: أثر العرف في فهم النصوص .. قضايا الراء

نموذجها، رسالة الدكتوراه تحت المفتح، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا، ٢٠٠٠م، ص ٢٢ وما بعدها، وانظر كذلك: خليفة باكر الحسن: تخصص النصوص بالأدلة الاجتهادية عند الأصوليين، مكتبة رمنة، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٥٠، محمد أنيب صالح: تفسير النصوص في اللغة الإلهامي، الكتب الإلهامي، بيروت، ط ٢٠١٩٨٤م، ج ١١ ص ٥٠.

4- Webers's International Encyclopedia 99 Cd, Hermeneutics.

٣٥

والشرعية لدى أتباعه ومعتقيه ومن حيث وضوحه وللايته على مناه و. شيخ ذلك من عوامل أخرى متعددة باتت بجمعوها تشكل نزوة لتن استغل بناته وصار يُعرف بنز التاويل أو الهرمنيوطيقا في الفكر الغربي.

لقد تم فن التاويل بمراحل مختلفة عبر التاريخ وتداخلت عوامل عدة في تشكيله؛ والتأثير على سيره وصيرورة محاربه. وتزوم هذه الدراسة الوقوف على أهم المحاور التي يدور حولها فن تاويل النصوص الكتابية المقدسة في البيانات السامرية المختلفة من يهودية ومسيحية وإسلام. كما تقف الدراسة على عدد من الظروف التاريخية والفكرية التي أثرت على سيره في تتبع تاريخي يمتد إلى العصر الراهن.

وتأتي أهمية هذه الدراسة في الوقت الحاضر على وجه الخصوص فمن محاولات فهم الآخر وتتبع خلفيات مناهبه الفكرية والمقدية. ولا تخفى أهمية هذا النهج في عملية الحوار مع الآخر بناءً على فهم مختلف خلفياته، وإثرائها.

مفهوم النصوص الكتابية:

وتشتمل في الديانة اليهودية على:

العهد القديم: وهو مجموعة الأسفار التي جمعها رجال المجمع الأكبر الذي تأسس عقب العودة من السبي البابلي وقد تم جمعها في عام ٤٤٤ ق. م. ومجموع هذه الأسفار ٣٩ سفرا أو أربعة وعشرون في حساب من يعتبر الأسفار الأربعة سفرا واحدا. والعهد القديم مقسم إلى ثلاثة أقسام: التوراة والأنبياء، والكتب والصحف^(١). وهناك نظريات متباينة حول التوراة التي تم فيها جمع هذه الأسفار، منها أنها ذات ارتباط بسالة السبي البابلي حيث بوزت الحاجة لذلك^(٢). وقد وجهت انتقادات عديدة حول صدقية العهد القديم وصدقه نسبة ولكن صداقته لأتباع اليهودية ثابتة فهو يشكل التريعة الدوينة كما أن التلمود يشكل التريعة الشفوية في عقيدة الرئائمين وكلا التوراتين يشكلان نزوة تشريعية حامة.

انظر عرفان عبد الحميد: اليهودية: عرض تاريخي والحركات الحديثة في اليهودية، دار البازار، بيروت، ١٩٨٧/٥١٤١٧م، ص ٧٦. وراجع كذلك بحثنا للنشر رقية طه جابر: أحكام الأرة بين الإسلام والتقاليد الغربية: دراسة تحليلية مقارنة فمن المسار التاريخي، مجلة الدراسات الإسلامية، مجمع البحوث الإسلامية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، الهند الثالث، خريف، ٢٠٠٠م.

١- أحمد غلبي: اليهودية، مكتبة النهضة العربية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٣٥٤.

٣٤

بالطبيعية، وليس من فيل الإداية أو التقليد. فقانون الطبيعة الناقل بقانون الله حُرّف بالمقل الذي يأمر بالواجب عمله، وينهى عن الواجب تجنبه.

وقد ظهرت بواكير الاتجاهات المختلفة في التأويل منذ عهد مبكر ففي اليهودية، ظهرت فُرقة الفريسيين Pharisees التي ازدهرت في فلسطين منذ عام ١٦٠ قبل الميلاد، وحُرّف الفريسيون بتسمكهم الشديد بالتوراة غير المكتوبة. كما حاولوا عزل أنفسهم - كما يظهر من تسميتهم في العبرية -

عن الثقافات والفلسفات الهيلينية واليونانية والرومانية من خلال تسمكهم بالتوراة^(٩).

ولا تزال عقيدتهم تشكل الأساس في الفكر اللاهوتي اليهودي إلى اليوم. ويعتبر الفريسيون الميخنة التي تمّ جمعها في القرن الثاني الميلادي جزءاً هاماً من القانون اليهودي المنزّل على موسى عليه السلام. ويرى الفريسيون أنفسهم أكثر الجماعات اليهودية التزاماً بالتوراة من غير وقوف على حرفية النصوص وعلى هذا أطلق عليهم اسم المجددين الأحرار في فهم التوراة وتفسيرها^(١٠). فالوحي عندهم يشمل التوراتين الدوتنة والشفوية.

ويذهب الفريسيون إلى ضرورة استعمال العقل في تفسير وشرح التوراة -للامة وبواجهة المشاكل المعاصرة. وعلى هذا قاموا بتأويل النصوص وفق روح القانون بدلا عن الالتزام بحرفية النصوص لتطويع اليهودية لمطالب العصر والظروف المتغيرة^(١١). وقد كان ذلك المسلك المنهج تجاه النصوص سبباً في استمرارية عقيدة الفريسيين وانتشارها أكثر من غيرها. وكانوا يسرون في سلوكهم وفق تفاسير حُرّفاً ونخبياً للأشعار الخمسة آخذين في فهمهم وتأويلاتهم التحولات التاريخية التي أفرزها الأثر البابلي. كما عُرّف عنهم جرأتهم في الاجتهادات الشرعية واستنباط الأحكام وعلى هذا اتهموا من

قبل الفرق اليهودية الأخرى بالابتداع، فهم يفتنون للناس بما لا نص فيه في التوراة المدونة كما حاربوا تطويع اليهودية لمطالبات التحديات الاجتماعية من خلال تأويلاتهم المستحدثة للنصوص^(١٢).

كما ظهر الاهتمام بوضع ضوابط للتأويل في اليهودية على يد المعلم الكبير الرباي هيليل (٧٠ ق.م / ١٠ م)، ويعدّ هيليل أكبر معلمٍ وقّيعه في ذلك العصر. وإلى هيليل يعود الفضل في إرساء قواعد ما يمكن أن يُعرف بـ مدرسة الرأي الـ lenient school في اليهودية. التي عرفت بنحائها المعتدل

9- Gredthen A. Shapiro, *The Pharisees and their Wisdom*, pl.

١٠- راجع: عرفان عبد الحميد: اليهودية، ص ١٠٠.

١١- مترجم بتصرف عن: Hillel, 1999, *Encyclopedia Britannica* Cd.

١٢- انظر عرفان عبد الحميد: اليهودية، ص ١٠١.

وتذهب الموسوعة الكاثوليكية إلى أن كلمة الهرمينايتيقا^(٥) نرسخ في جذورها إلى اليونانية gods ولكن استعمال المصطلح حدّد الكلمة وجعلها علماً يدل على تأويل النصوص المقدسة^(٦).

أما التأويل في الفكر الديني في الإسلام فهو لدى العلماء المتقدمين تفسير للفظ وبيان لعناه فقط. إلا أن التأويلين من العلماء اتفقوا على أن التأويل نقل للفظ من ظاهره إلى ما يخالفه. يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله في ذلك: "التأويل صرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته إلى مجازه وما يخالف ظاهره وهو مراد المعتزلة والجمهية وغيرهم من فرق التكلمين وهو الشائع في عرف التأويلين من أهل الأصول والفقه"^(٧).

اتجاهات التأويل المبكرة في الفكر الغربي:

يرتكز تأويل النصوص في حقيقته على مسألة هامة تناولها فلاسفة والعلماء قديما وحديثا، ألا وهي الجدلية القائمة بين العقل والنقل. تلك الجدلية التي لم تخل منها ديانة سماوية ثابتة بالوحي على وجه الخصوص. بل إن العالم اليوناني على الرغم من جذوره الغائبة عن الوحي، شهد كذلك صراعا بين ما يشبه تلك الثنائية كالصراع بين العقل والآلية وبين العقل والمادة. ذلك الصراع الذي ورثته الفلسفة الغربية وتقاليدها^(٨).

وفي ثنايا تلك الصراعات الفكرية والفلسفية، اعتمد عددٌ من فلاسفة اليونان على العقل وتقديراته وأحكامه وظهر منهم من أمثال خريزيبوس "Chrysippus" (٢٠٥ ق.م) ممن أرجع التحسين والتفويض في الأشياء للعقل وحده. وتعتبر فكرته. تلك البذرة الأولى للحوار الدائر حول النص والعقل فالشيء لا يكون حسنا لأن الله قد أمر به، ولكن الله أمر به لأنه حسن. فالصواب والخطأ مستقلان

٥- في تعريف Hermeneutics:

Gerhard Kittel, *Theological Dictionary of the New Testament*, trans: Geoffrey W. Bromiley, Grand Rapids: Eardmans, 1964, 11, 661-666.

Carl R. Holladay, *Harper's Bible Dictionary*, Harper & Row, San Francisco, 1985, p. 384. *The New International Dictionary of New Testament Theology*, ed. Colin Brown, Grand Rapids, Zondrivan, 1979, 1: 59.

6- The Catholic Encyclopedia, Volume VII. Online Edition, 1999, Kevin Knight. Hermeneutics.

٧- ابن قيم الجوزية: الصواعق المرسلة على الجمهية والمطلة، تحقيق: علي بن محمد الدخيل، دار العاصمة، الرياض، ١٩٩١م، ج ١، ص ٧٩.

8- Atberry, A. J. *The Revelation and Reason in Islam*, George Allen & Unwin Ltd. 1957, pp. 8-9.

رت 1077/1078). وقد عُرف بالتأثر والترفة نحو التطرف ورفض تشرحية التلمود بناءً على رفضه وتحريره للتأويل وتمسكه بظواهر النصوص ومن هنا جاءت تسمية أتباعه بالحرفيين^(١٦).

إننا في المنطوق المسيحية فقد برز عدد من آباء الكنيسة الأراثل من تبني قانون فيلر للتأويل القائم على التوفيق بين المثل والوحي، ومنهم: كليمان الإسكندراني^(١٧)، والديس أريسطين، الذي جعل المثل مجالا وانتقل مجالا فالمثل لا يستطيع وحده أن يصل إلى الحقيقة كلها، والمثل يعطي الحكمة كاملة عن الله. وفي المصور الوسطى كذلك، ظهر توما الأكويني^(١٨) الذي ذهب إلى عدم وجود تعارض بين المثل والمثل البتة، فالمرقة الفلسفية قائمة على المبادئ العقلية التي وضعها الله في الإنسان، فالمثل لا بد أن يكون متطابقا معها، لأن المصدر لكليهما هو الله.

يبدو أن هذه تيارات معارضة لهذا المنحى التوفيق في مجال الفكر الديني في اليهودية والمسيحية، ظهرت في الساحة. كما ظهر من أسس القطيعة بين المثل والمثل معتمدا على ضرورة الالتزام والتمسك بحرفية الوحي والنصوص المقدسة. ووجد اتجاه رَ والتأويل آدانا صافية في المسيحية لدى تيروليان Tertullian الذي توفي عام ٢٢٥م والذي اتخذ موقفا معاديا للحكمة ومحاولات عقلنة الإيمان^(١٩).

فقد رأى تيروليان في الوحي غثى عن أي معرفة أخرى وحصل على الفلسفة وقر عداوتها للدين وروى عنه قوته المشهورة: "بعد المسيح والإنجيل لسنا بحاجة إلى شيء". وقد بعد قرون في اليهودية مقترنة هذه بحذافيرها، يهودا هابني^(٢٠)، الذي لاقت كتاباته وأفكاره رواجاً واسعاً وقبولاً لدى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية^(٢١).

اتجاهات التأويل المتأخرة في الفكر الغربي:

دشن فن التأويل في الديانتين اليهودية والمسيحية مرحلة جديدة مع بيانات ظهور الحركة الإصلاحية فيها. تلك الحركة التي فحنت السبيل أمام التأويلات المتعددة والنظريات المتحدثة على اعتبار حرية التأويل في الفهم والتأويل. فقد دعا مارتن لوث^(٢٢) ١٤٨٣-١٥٤٦م، وزيونجلي^(٢٣) ١٤٨٤-١٥٣١م

١٩- عرفان عبد الحميد: اليهودية، مرجع سابق، ١٩٧، وانظر المؤلف كذلك: ١٩٩٩، الفهم السلفي في

الأديان وقواعد الفلسفة الدينية، الترجيح، السعة الثالثة، والمدد الخامس. وانظر كتاب:

Britanica Cd, Antirabbinic reactions.

٢٠- عرفان عبد الحميد: الفهم السلفي وعلايقه في القرآن الكريم، ص ٢١.

٢١- *Britanica Cd, Tertullian, assessment.*

٢٢- Jacob Neuser, *The Way of Torah, Ibid, p. 127.*

Encarta Cd, 97, Tertullian.

معارفة بالدرسة التي تقابلها، والتي يمكن أن يطلق عليها اسم مدرسة "التي تولي إهتمامها مضمونه الرباعي شساي، فقد عرفت الأخيرة بمنحها التعمد. وقد أكد هيليل على أهمية ضبط عملية تأويل وشرح التوراة^(٢٤) من خلال تقديمه للقواعد السبع^(٢٥) التي عرفت بقواعد هيليل السبعة Seven Middot of Hillel.

ومن هنا اتسمت مدرسة هيليل بعزيمتها على تحقيق اجتهاد وفهم للنصوص القديمة؛ يتبنى مع روح القانون والتريفة اليهودية دون التركيز على حرفية التريفة أو حذيقها، من خلال ما عرفت به من تأويل عقلاني للتوراة المكتوبة والمنقولة. كما اعتمد بالتركيز على الآلات والقواعد الأخلاقية والروحانية لكل قانون أو حكم توراتي.

وقد كان للثقات الأجنبية أثرها البارز في تحديد مسار التأويل في اليهودية فقد تعرض فيلر الإسكندراني Philo of Alexandria الذي عاش في الفترة الواقعة ما بين (٢٠ ق.م / ٤٠م) زعيم مدرسة الإسكندرية اليهودية، للبحث في جدلية الصلة بين المثل والمثل^(٢٦).

ويعد فيلر أول من اخترع قانون التأويل كمنهج لتحديد العلاقة بين الوحي والمثل في قوته الشهيرة: الحكمة هي المساحبة والأخت الرضية للوحي، وأكد على أن الوحي والمثل طرفان موصولان إلى الحق في النهاية. كما انتقد الاتجاه الظاهري التمسك بحرفية النص الكتابي^(٢٧). وخلص إلى أن العلاقة بين الدين والمثل لا بد أن تركز إلى متابعة المثل لتتغيرات الوحي^(٢٨)، ومثل للوحي بسارة والمثل بهاجر ويقول إبراهيم عليه السلام: "مدته جارئك في يدك فانطلي بها ما يحلو لك"^(٢٩)، فالمثل تابع للوحي subservient.

وظهر اتجاه آخر للتأويل في اليهودية مع ظهور فرقة التوراة التي ظهرت في بابل في القرن الثامن الميلادي. وتعود نشأة تلك الفرقة إلى عتار بن دارو، الذي ظهر أيام الخليفة العباسي المنصور

13- Robert M. Selzer, 1980, p 218:

١٤- يرى عدد من الكتاب أن هذه القواعد وجدت في وقت مبكر يسبق عهد الأمير هيليل إلا أن سبب نسبتها إليه يعود إلى كونه أول من قام بتدوينها. راجع في ذلك:

<http://yashanet.com/studies/revsudy/hillel.htm>, The Seven Rules of Hillel.

15- *Britanica Cd, Philo Judaeus.*

16- *Encarta Encyclopedia Cd, 97, Philo.*

17- *Britanica Cd, Philo Judaeus.*

١٨- العهد القديم، سفر التكوين: ٧/١٦.

في الوعي الغربي، استلهم على الكنيسة ورجالها ودعا إلى نبذ الدين والفلسفة معا، فالدين مجرد خرافات مبتدعة Myths or Superstitions كما أن الفلسفة جهد عبثي ضائع لا طائل من وراءه. وقد انخرط الكثيرون من مفكري الغرب في هذا الاتجاه^(٢٧).

واستعداد العقل حريته التي فقدتها تحت سلطان الكنيسة وتشريعات رجالها. تلك الحرية التي وهبت العقل حتى مراجعة كل المعتقدات السائدة ووضمها محك النقد والتحليل والتأويل. وبهذا أصبح العلم محورا للفلسفة الوضعية Positivism والتي اصطلح على أسسها مظاهر الوضعية من أمثال: أوجست كونت وسيجموند فرويد ١٨٥٦-١٩٣٩م وغيرهما. وبهذا تم النظر إلى النصوص الكتابية من جديد بمنظار العقل وقوانينه، فالعقل الغربي وحده قادر على التوصل إلى المعرفة والحقيقة دون الحاجة إلى نصوص غيبية أو ميتافيزيقية. وعلى هذا فقد استثنى العديد من الوضعيين أي احتقال للخوارق والمعجزات، والذي نجم عنه تأويل علمي وضعي للنصوص الكتابية وأحداثها ورجالها. واعتبروا بذلك كل الأحداث الخارقة الموصوفة في التوراة، من وضع واخترع آباء الكنيسة الأوائل.

وعلى الرغم من ردود الفعل المختلفة والناقضة في بعض الأحيان للفلسفة الوضعية^(٢٨)، إلا أن صديقاتها وتأثيراتها بقيت واضحة المعالم في الفكر الغربي. وهنا عادت إشكالية التأويل للعكرية من جديد. كما امتدت صراعات التأويل في الفكر الغربي إلى ساحة الأدب في القرن العشرين. وطرح التأخرون من الإصلاحيين في اليهودية والمسيحية على حد سواء - من أمثال سينيزا وهوبز - دراسات متشعبة حول النصوص المقدسة خلصوا من خلالها إلى وسائل عديدة لنقد النصوص الكتابية. والتي تم من خلالها النظر إلى النصوص المتضمنة لبعض الخوارق والمعجزات التي توحى إلى عظمة الرب وقدرته، على أنها خرافات وشعوذات وتصورات تنبئ عن صغر العقل الإنساني في تلك المرحلة. وتعتبر نظرية النقد التاريخي من أبرز الاتجاهات وأخطرها في مجال نقد النصوص. وقد ظهرت في القرن الثامن والتاسع عشر الميلادي في ألمانيا على وجه الخصوص، وسرى تأثيرها إلى مختلف المناطق فيما بعد. فقد تغيرت حياة اليهود في الغرب في ذلك الوقت بسبب الأفكار الجديدة والأجنبية التي عمل اليهود الذين تربوا في بيئات أجنبية على نشرها. واشتغل هؤلاء بالفلسفة غير اليهودية واقترحوا بناءً على ذلك إجراء تحليلات جديدة لنصوص التوراة وأعلنوا تحديدهم الصريح لسلطة الأحبار اليهود. وبدأت الدوائر اليهودية التقدمية في برلين وباريس وفيينا تنعم بصر التنوير والذي نبذت فيه الذي

27- Encarna Cd, Genesis.

28- من رجالات الكنيسة الذين تعرضوا لهذه المسألة: Encarna Cd, Pius XII (1958-1976)

وغيرها من رواد الحركة الإصلاحية إلى حرية التلقي في فهم النص - سمر رأويله. وكانت ندوات الإصلاحيين تستهدف تحديد دور الكنيسة ورفض احتكار الكنيسة لتأويل النصوص فالعقل الفردي قادر على التعامل مباشرة مع النص وفهمه واستيعابه. كما استهدفت تلك الحركة القول بوحدة المصدر التمثل في الكتاب المقدس وحكمت بهذا على تراث الكنيسة بالإلحاد، وقد برزت فكرة حرية التأويل والقول بالتعددية التأويلية في دائرة النصوص الدينية عند العديد من رجالات الحركة الإصلاحية على قدر من الاختلاف في مدى الاعتقاد على ذلك^(٢٩).

وتعتبر محاربة الإصلاحيين في الاعتقاد على الكتاب المقدس دون سواه، الأولى من نوعها في تاريخ اللاهوت المسيحي^(٢٩). بيد أن تلك الندوات اتخذت مسارات مختلفة بين صفوف البروتستانت في العصور التالية، فقد مهدت لقبول مختلف النظريات النقدية المستحدثة التي بات أغلبها يهدد قدسية النصوص الكتابية وينازلها.

فصلى الرغم من الاتفاق العام على صدارة الكتاب المقدس، اختلف البروتستانت حول قضية تأويله. فالذين قبلوا نتائج الدراسة الانتقادية التاريخية للإنجيل، التي ظهرت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، قاموا بتطبيق وتعمير نتائج تلك الناهج على النصوص الكتابية، وخرجوا بعدم صق العديد منها؛ كما قاموا بتأويل البيض الآخر بتأويلات مجازية وإغرابية. أما البروتستانت المحافظون ومهم غالبية الإنجليكانيين، فقد أصروا على التمسك بالحرفية المطلقة للكتاب في مسائل العقيدة والتاريخ والجغرافيا وغيره^(٣٥).

ولاقت تلك التوجهات ردود فعل عنيفة من قبل أتباع النهج "السلفي" في الفكر الديني اليهودي الحديث على وجه الخصوص، واعتبروا السير وفق تلك الحرية التأويلية مسوقاً دونما شك إلى ردة دينية، يتم من خلالها إسقاط كل الخصائص القومية والقومية والدينية لليهود^(٣٦).

ومع دخول أوروبا عصر النهضة وانحسار دور الكنيسة، انتقل الدين في الوعي الغربي من مصدر للمعرفة والحقيقة إلى تراكم تاريخي وصديقات لزمان وواقع ينبغي تجاوزه، وحل العقل محل الدين. وبهذا تم إخضاع كل المعارف لقوانين العقل وشروطه ومسلطاته. وقد مثل هذا الاتجاه الوضعي

23- G. R. Potter, Zwingli, Cambridge University Press, Cambridge, 1984, p. 295. See also: W. G. Kummel, The New Testament; The History of the Investigation of its Problems, Nashville, New York, 1972, pp. 22 - 23.

24- G. Ebeling, The Meaning of Biblical Theology, Word and Faith, SCM, London, 1963, p. 82.

25- Encarna Cd, Protestantism.

عرفان عبد الحميد: النهج السلفي: مرجع سابق، ١٧-١٨.

جمهور الصلبيين بعد ذلك، والمواظب الدينية حتى هذا اليوم، وعلى هذا لا يتطرق النقد للمذاهب الكتابية فيلسوف القرن الثاني عشر يميون أو صوفي القرن السادس عشر إسحاق لوريا. ولا يتطرق النقد للدين إلى الحاخامات الذين كتبوا التلمود أحياناً، كانوا أو أوقات فهم يعتبرونهم تجميعاً للنصوص القديمة المتضمنة في مجموعها كلمة الرب^(٣١). ويعتقد أصحاب هذا الاتجاه الأصولي في السجحة كتاباً بإطلاقه النصوص القديمة فلا ينبغي تجاوزها أو استبدالها بغيرها^(٣٢).

وقد قامت تلك الحركة المحافظة بحدّ ورفض التأويل التاريخي للإنجيل واعتباره مجرد تراكمات تاريخية كما ردت محاولات تأويله في ضوء التغيرات والتطورات العلمية المعاصرة، وطالب العديد من أصحاب هذا الاتجاه بحريم وضع تدريس نظرية داروين في التطور في محاضرة منهم لعدم مبادئهم في الحفاظ على قدسية الإنجيل.

إلا أن العقل التقدي التبري في المصور الحديثة استمر في دائرة النك وبني على النك عناصر مقوماته وانطلق منها، فأصبح عقلاً لا يهتم بإيمان يقين أو غيره، فكل النصوص لديه على السواء قابلة لكل أنواع النقد دون تمييز بين المقدس أو غيره.

وبهذا تم اعتبار المعادلة بين النصوص القديمة والأدبية وغيرها، وإمكانية إخضاعها لخلف القوانين والقواعد القديمة دون اختلاف على الإطلاق، وأصبح القارئ أو القارئ صاحب الكلمة الأول والأخير في الحكم على التأويلات المختلفة^(٣٣).

ويعتبر امبرتو إيكو مؤسساً للنظرية الناعية إلى فتح آفاق النص لاختلاف التأويلات، ويرجع بخبر أفكاره إلى عصر البيانات والمدارس الفلسفية القديمة، فيقوم بعملية حفر خبيرة في الفلسفة اليونانية القديمة ومن ثم يثبت أن معظم ما هو متداول من مفهومات الآن بخصوص التأويل والتأويل المعاصر للنصوص كانت موجودة بالقوة أو بالفعل من تلك الفسافات والمعانف القديمة، فكل نص بحسب التصور الذي سعى لتأويله في القدم، هو أنق مقترح لجميع التأويلات. فالتأويلات تتمدد بتعدد المؤلفين بل وتتغير المؤلف الواحد داخل قفترته وتتلون بما يكون عليه من حال، وبحسب استراتيجيه القرائية، وصورة ذاته ووجهه^(٣٤).

٣٢-

33- لانان، الرجح السابق: ج ١٢ ص ٨٨ وما بعدها.
34- Encarta Cd Fundamentalism.
Emberto Eco, *Interpretation and over-interpretation*, Cambridge University Press, Cambridge, 1994, p. 23.

٣٥- تتلا عن الحسن المغنر، امبرتو إيكو والتأويل النهائي، مجلة البيان، العدد ١٤.

٤٣

اليهودي التقليدي ووجه لغة الحقير اليهودي والطقوس والشعائر. لك، بل وتحول بعضهم واعتنق المسيحية. لقد حمل عصر التنوير الكثير من التحديات والتي بلغت حد تنازلة النصوص القديمة في المسيحية واليهودية تبعاً لسلاية التطور والمعاصرة^(٣٥). وبهذا ألفت نتائج نقد النصوص الكتابية والإلهية المرجحة للإلهية للنصوص الكتابية في العهد القديم والجديد مما.

وتخصّص عن تلك النسبة النظرة إلى النصوص الكتابية باعتبارها صدى لتاريخ مضي وباد وتفرض والوحي ما هو إلا تراكم تاريخي خاضع لسنة الزمان والكان والتحوّلات. فالنوراة كتاب تاريخي يُسجّل تاريخ إسرائيل، وحياة عيسى في الناصرة، وتاريخ الكنيسة المبكرة في نصوص بشرية التي أُلهمت من قبل الرب. وحيث أن النوراة عمل تاريخي، فهو خاضع للتحقق التاريخي ونتائج البحث التاريخي^(٣٦). وتضافرت تلك التوجهات مع انتشار وتأثير نظرية التطور الداروينية، التي حاول العديد من المفكرين في النرب إيقاظها على مختلف مجالات العلوم والمعارف، وأتت أثرها ليُعمل دائرة تأويل النصوص القديمة أيضاً.

وحاول البروتستانت إيجاد تأويلات جديدة للخبرة الدينية، وفهم للتاريخ يُسائر تطبيقاته ونتائج نظرية التطور. كما أنكروا إلى حد كبير، أن النوراة وحيّ الهي، وتاريخية السيد المسيح والإنجيل، وركزوا على السلوك الأخلاقي عموماً عن التمسك بالذاهب الكتابية كأساس للحياة المسيحية^(٣٧).

يبد أن تيار الحرية اللاهوتية السابق الذكر Theological liberalism عارضه تياران آخران صرنا كره فعل للتغيير الإصلاحية. تمثل الأول في الحركة الأصولية Fundamentalism والثاني منفصلاً في Crisis theology or neo-orthodoxy. فاعتبرت الأصولية قديمة النص أصلاً فلا عيرة بنتائج العلوم وفعوطات الواقع التغير مهما كانت صورتها وأشكالها.

ويعتبر اليهود الأصوليون أن الإخلاص الكامل ينبغي أن يكون للكتاب المقدس، كما تتصل الأصولية اليهودية بالتلمود الجزئ الكيس من القانون والأساطير الذي تمّ تجميعه ما بين القرن الأول والخامس الميلادي. ويعتد قدس الأصولية اليهودية للنصوص ليُشمل التعليلات والبياني وكلمات

٣١-

٣٠- ديفيد لانان: الأصولية اليهودية المعقدة والقوة، ترجمة: مجدي عبد الكريم، مكتبة سينبولي، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ٣٣.
30- E. Krentz, *The Historical Critical Method*, Fortress Press, Philadelphia, 1975, p. 11.
31- P. I. Marshall, *New Testament Interpretation*, Paternoster Press, Carlisle, 1992, p. 126.

31-

Encarta Cd, Modernism and Protestantism.

٤٢

وينطلق ايكر في عرضه لفهوم التأويل اللامحدر. يتضح في نص أو أية حقيقة على مصارعها لتقبل جميع التأويلات حتى أكثرها تناقضا للوصول إلى أن التأويل غير محدود.

وبهذا التوجه فقدت النصوص الكتابية قدسيتهما من خلال اعتبار المساواة المطلقة بينها وبين أي نص أدبي آخر، فالنصوص الكتابية في الفكر الغربي في ذلك الوقت ليست بآتية من خارج التاريخ أو مفارقة له، وكل ما ينطبق على غيرها يمكن تطبيقه عليها. ولا تخفى خطورة ذلك التوجه في مصادرة قدسية النص وإلغاء شرعيته ابتداءً.

اتجاهات التأويل في الفكر الإسلامي:

ارتبطت إشكالية التأويل في الفكر الديني في الإسلام بتحديد الصلة بين النقل والعقل، وتمتد جدلية التأويل محور الخلاف بين أتباع منهج السلف فيه وعامة المتكلمين. فقد أخرج أتباع المنهج الأول العقل من دائرة تأويل النصوص إلا بالقدر الذي تؤذي إليه المبررات والأخبار وما يستتبع تلك من التصديق والإذعان والتسليم. كما حذر رواد المنهج السلفي في الإسلام من مغبة النظر العقلي في أصول الدين والمعقّدة. إلا أن هذا التوجه لا يعني لديهم تفهيم لدعوة القرآن الكريم إلى النظر والتدبر المشفوع بآيات مضاعفة، بل أرادوا به الاحتراز من متابعة العقل وأحكامه في أصول الدين والمعقّدة التي لا سبيل للوقوف عليها إلا الوحي والنقل^(٣٦)، فحفظوا للنصوص إطلاقيتها.

وقد ارتبط التأويل في الفكر الديني في الإسلام بالإشكاليات الأولى التي ظهرت في المصوّر التي حدث فيها اتصال واحتكاك مباشر بالتراث الأجنبي عن طريق الترجمة ونقل الفلسفة اليونانية ونحوها. ومن تلك الإشكاليات: مسائل القضاء والقدر، والصفات الإلهية وخلق القرآن ونحو ذلك.

ومن هنا انبرى أتباع الفرق الإسلامية المتعددة للجوء إلى النصوص الدينية المنضلة في القرآن الكريم والسنة النبوية لتدعيم آرائهم في الغالب أو للرد على آراء مخالفيهم. وبدأت محاولات مبكرة استهدفت في كثير من الأحيان تطويع النصوص، وهذه ظاهرة عمت الأديان وبرزت في الفكر الديني، فكل يلتمس الشرعية يربط اجتهاداته بالمتقدم والجيل الأول أو السابق له. إلا أن التوسع في ذلك الاتجاه أدى - في كثير من الأحيان - إلى ظهور عدد من التأويلات الفاسدة البعيدة عن مرامي النصوص ومقاصدها. والتأويل الفاسد هو المخالف لما دلت عليه النصوص وما جاءت به السنة وهو في ذاته نوع من التحريف المعنوي المقتضي للعلول بالكلام عن وجهه وصورته إلى غيره بدون دليل أصلا أو بشبهة

٣٦- انظر تفصيل ذلك في: عرفان عبد الحميد، المنهج السلفي، ص ٢٤.

بظنها المؤول دليلا وليست بدليل^(٣٧). وعلى هذا كان التأويل الفاسد البعيد عن مرامي النصوص وغاياتها ومقاصدها العليا من أعظم المفاسد الفكرية التي منبت بها المجتمعات المسلمة على مر العصور والتاريخ.

يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله في توصيف إشكالية التأويل وما نجم عنها آنذاك في سفره إعلام الوقيعين: "ريكي التأويلين كلام الله ورسوله بالتأويلات التي لم يردحها ولم يدل عليها كلام الله أنهم قالوا برأيهم على الله وقدموا آراءهم على نصوص الوحي وجعلوها عيارا على كلام الله ورسوله ولو علموا أي باب شر فتحوها على الأمة بالتأويلات الفاسدة وأني بناء للإسلام هدوميا بها وأني معاقل وحصون استباحوها وكان على أحدهم أن يخز من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتعاطى شيئا من ذلك ... أصل خراب الدين والدنيا إنما هو من التأويل الذي لم يردح الله ورسوله بكلامه ولا دل عليه أنه مراده. وهل اختلف الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل وهل وقعت في الأمة فتنة كبيرة أو صغيرة إلا بالتأويل فمن بابه دخل إليها وهل أزيقت دماء المسلمين في الفتن إلا بالتأويل وليس هذا مختص بدين الإسلام فقط بل سائر أديان الرسل لم تزل على الاستقامة والسداد حتى دخلها التأويل فدخل عليها من الفساد ما لا يعلمه إلا رب العباد. وقد توارثت البشارات بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في الكتب المتقدمة ولكن سلطوا عليها التأويلات فأفسدوها كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم من التحريف والتبديل والكتمان؛ فالتحريف تحريف المعاني بالتأويلات التي لم يردحها التكلم بها والتبديل تبدل لفظ بلفظ آخر والكتمان جحدته وهذه الأدواء الثلاثة منها غيرت الأديان واللبل وانا تأملت دين المسيح وجدت النصارى إنما تطرقوا إلى إفساده بالتأويل بما لا يكاد يوجد قط مثله في شيء من الأديان ودخلوا إلى ذلك من باب التأويل وكذلك زنادقة الأمم جميعهم إنما تطرقوا إلى إفساد ديانات الرسل صلوات الله وسلامه عليهم بالتأويل ومن بابه دخلوا وعلى أساسه بنا^(٣٨).

ويتضح من عبارة ابن قيم رحمه الله أن التأويل الفاسد غير المنضبط كان مدافعا للتغيير والتحريف في مختلف الديانات فهو ظاهرة عامة شهدتها الأديان السماوية جميعها. وبهذا

٣٧- انظر ابن قيم: الصواعق المرسلّة، ج ١، ص ١٨٧، محمد بن أحمد ابن النجار، شرح الكوكب المنير، تحقيق: محمد الزحيلي، نزهة حماد، مركز البحث العلمي بجامعة الملك عبد العزيز، السعودية، ١٤٠٠هـ/٢٠١٨م، ج ٤، ص ٤٦١.

٣٨- ابن قيم الجوزية: إعلام الوقيعين، تحقيق: طه عبد الرؤوف، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م، ج ٤، ص ٢٤٩-٢٥٠ وما بعدها.

وعاياتها عروفا عن فرس الأحكام السنية والتوجهات الجاهزة عليها، ومن ثم يدل الوسع في فهم النص واستخراج معناه وما يترتب على تلك المعاني من أحكام مع توافر دواعيه وآياته عند اللوؤل. إضافة إلى أهمية الالتزام بالعقوبات المتعارف عليها في الاجتهاد والتأويل.

ولا يفهم من ذلك التوجه القول بالحجر على القول والاجتهاد أو الدعوة إلى غلق بابها وإنما الرد بذلك استدعاء اهتمام الباحثين إلى أن الحرية في الاجتهاد والتأويل لا تعني إلغاء العقوبات والسبر وفق الرغبات أو الاجتهادات المقبلة المحفنة، بل لا بد من استحضار العقوبات التي تحفظ للتأويل والنهم مجالها وموضوعيتها. كما أن الانضباط لا يعني بحال إلغاء دور العقل أو الحجر عليه بل التوفيق بينهما وهو وارد ثابت بالشرع والمثل.

إن ما حدث في الفكر الإسلامي في تلك الحقبة، مهد لزعزعة قانون التأويل لا في مسائل المعات والنقص والتقصير، فحسب، بل بوجه عام، فقد فتحت تلك النزاعات والخلافات الباب على مراعاه الحرية في تأويل النصوص التي امتدت لتشمل دائرة النصوص السمعية الغيبية وراحت عملية التأويل ممتدة الوسائل منتمية بالطرائق. وهكذا بدأ التحول من الاهتمام المباشر بالنصوص ومعالجتها الظاهرة ومحاولات تنزيلها على الواقع لتعذيبه وترجيحه (كما كان على ذلك المحابة ومن تبعهم) إلى التحول باتجاه المؤرك والاهتمام بالرد والتفتيد والتأويلاته وأفكاره وتقييمه إن اقتضى الأمر.

ولم تظهر خطورة ذلك للنحج التأويلي في ذلك العصر، فقد انبرى ليفي من العلماء السابقين رحمهم الله للعديد من الاتجاهات الزائفة في التأويل في محاولة لتبيان زيفها وانحرافها. ومنت محاضرة التأويلات المنحرفة المتعلقة بقضايا المعات والاصفات في الفكر الديني في الإسلام بإرشاد قواعد وقوانين التأويل العسابط. بيد أن تلك العقوبات لم تتواصل الجهود للمحاربة فيها وتطويرها خارج نطاق مسائل المعات ونحوها، فاستمرت بتلك التأويلات المتعددة دون ضابط يحكمها، في النواحي الأخرى من النصوص والتي اهتمت بالمعاملات والتعقيبات ونحوها.

اتجاهات التأويل المتأخرة في الفكر الإسلامي:

شهدت المجتمعات المسلمة في القرون الزمنية المتأخرة من تاريخها تحولات كبيرة مع زحف التحدي الحضاري الغربي الحديث. وبرزت العناية في المجتمع خلال القرن التاسع عشر وما تلاه كاتجاه يحاول طرح التفسير على النغنية المسلمة في كافة المجالات. والعناية ظاهرة غريبة النشأ والنبت تدور حول عقدة التصور حول الرب واعتباره مرجعية تستقنى في كل صغيرة وكبير (٤٧). وقد

٤٧- رقية طه جابر: العناية وتوهمها على قضايا المرأة، مجلة البيان، أغسطس، ٢٠٠١م.

الانحراف والتسيب والتعسف في تأويل النصوص، تحوّل التأويل من أداة طيبة للفهم السليم للنصوص ومن ثم تطبيقها وتنزيلها بشكل أكثر دقة وموضوعية، إلى أداة لتبرير المعاني البعيدة عن مقاصد الشارع بل المخالفة له في كثير من الأحيان.

إلا أن غالب القضايا التي تم الخوض في تأويلها كانت تدور حول قضايا سمعية غيبية لا يمكن العقل من الاستقلال أو الاستئثار بغيرها أو تأويلها وإدراك حقيقتها وغايتها تكوها، فالخوف في تأويلها لا دليل عليه بل لابد من إجرائها على ظواهرها.

وقد ولدت تلك النزاعات التجريدية المبكرة في الفكر الإسلامي ومنذ ذلك الحين، بروز نوع جديد من التأويل يعود اللوؤل إلى الرغبة في الانتصار للثبات عن طريق التعسف في تأويل النص وتطويره لتوافقه وتزعمه الشخصية. فينتقل المؤرك بفهم مسبق من الثبات إلى النص ليتبجح منه تأويلاً يلائم ما يدعو إليه ويؤيده (Justification).

وتتزامن هذا النوع من التأويلات وانتشاراً، لم تعد النصوص تعقلاً انطلاقاً نحو المتلقي أو المخاطب بل تعقلاً ارتكاناً وبؤرة تبرير لبادئ وأفكار مسبقة في ذهن القارئ أو اللوؤل. وقد ألتح الإمام ابن تيمية (٣٩٦) إلى خطورة هذا النوع من الاتجاه التأويلي كما أثار تلميذه ابن قيم الجوزية إلى انتصار هذه الظاهرة بقوله: "تكل صاحب باطل قد جعل ما تأوله التلأولون عذراً له فيما تأوله هو وقال ما الذي حرم علي التأويل وأباحه لكم... وقالوا كيف نحن نناقض على تأويلنا وتخرجون أئمتنا على تأويلكم" (٤٠).

وقد وجد أصحاب هذا النوع من التأويل في بعض النفاغم السائدة مدافاً لإغناء الشرعية والقبول على تأويلاتهم البينة، كالقول بأن كل مجتهد مصيب. وأصل المسألة الحديث الوارد في ترغيب القفاة: "إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر وإن أصاب فله أجران" (٤١). فقد اعتبر أصحاب هذا الاتجاه القيام بتلك التأويلات محض اجتهاد يؤجرون عليه سواء في ذلك الخطأ والصواب. بيد أن أصحاب هذا الاتجاه أظفراً أهمية الإتيان إلى النصوص ببنية قابلة للاحتكام إلى مقاصد النصوص

٣٩- ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير، تحقيق: فوز أحمد زمللي، دار ابن حزم، ٢٠١٤م، ص ٧٣.

٤٠- ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين، ج ٤، ص ٢٤٩.

٤١- محمد بن علي الشوكاني: السبل الجرار للتدقيق على حقائق الأرواح، تحقيق: محمود إبراهيم زهير، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا تاريخ، ج ١، ص ٢٠، وما تحدر الإحارة إليه أن أصل هذا الحديث

وارد في ترغيب القفاة والحكام وقد ورد بجميع أناهه في هذا المجال.

تعدت استجابات العديد من المفكرين في العالم الإسلامي لـ «ت» دافعة إما بمحاولة تفحصها أو التكيف معها. فالحدائق كمنهون لم ينبثق من نصوص القرآن الكريم أو السنة النبوية ولم يتم بتقديم نظرة أصلية تستحضر مقاصد تلك النصوص أو غاياتها، بل طيح النهج المقارن مع الغرب وتبناه واحتكم إلى منطقتهم في كثير من الأحيان.

ودعت العديد من الكتابات إلى التفسير وتبني التقمّ والتعدّن بمفهومي الغربي السائد للخروج من حالة الضعف والتخلف الذي منيت به المجتمعات المسلمة آنذاك. ولجأ أصحاب هذا الاتجاه إلى تأويل العديد من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وفق الفلسفات السائدة آنذاك ويظهر ذلك جلياً في النصوص المتعلقة بالمرأة على وجه الخصوص. كما برز اتجاه الاستقلال الدلالي للنص وحرية التلقي في الفهم والتأويل، بل واعطاه الحرية الكاملة للمؤول في النظر إلى النصوص واعتبارية تلك الاستقلالية مهما بلغت تجاوزاتها.

... فالدين يقدم افتراضاً يوحي إبحاه والعلم الإنساني يتخذة فريضة عمل ينبغي التحقق منها في الواقع. وهذا يعني أن التفسير هو اكتشاف واكتناه الواقع فلا يعود سبيلاً نازلاً من النص إلى الواقع وإنما يندو سبيلاً صاعداً من الواقع إلى النص، بهذا تتصوب رؤيتنا إلى الدين إنه وليد الواقع ناشئ منه واليه يعود. وبهذا يتوضع الدين كعلم إنساني وما تحول التولوجيا "علم الكلام" إلى أنثولوجيا "علم الإناسة" سوى مقدمة لتحويل الدين إلى أيولوجيا" (٤٣٧).

وانطلقت العديد من تلك الاتجاهات التأويلية إلى بعض الدوائر الفكرية في المجتمعات المسلمة عن طريق التأثير الحاصل بفكر التنوير والنهضة الوافدة من الغرب إضافة إلى العديد من الفلسفات المصاحبة له.

فقد ذهب مارتن لوتر من خلال فكرة الإصلاح إلى أن كل اختلاف في التأويل معطى سلفاً وموجود في النص، وقال بيهوميونيقياً متعددة الطرق في التأويل تنفيذ في فهم تاريخ التأويل بمسئلتها تداولاً لآفاق الماضي والحاضر (٤٤) في محاولة منه لمحاصرة دور رجالات الكنيسة وسلطتهم المطلقة في التأويل. وهكذا أسهم انتشار اليروثوستاني في نشأة ظاهرة الاستقلال الدلالي

45- Gadmar, Hans George. *Truth and Method*. Trans. By Weinsheimer, Joel and Marshal, Donald. *Continuum*. New York, 2nd ed, 1989.

46- Wilfred Cantwell Smith, *What is Scripture?* Fortress Press, Philadelphia, 1993, p. 87.

٤٧- انظر في مقالات أصحاب هذا الاتجاه: نصر أبو زيد، فلسفة التأويل: دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٥ وما بعدها. وانظر للدؤف، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، بيروت، ١٩٩٢م، ص ٢٢٨.

تعدت استجابات العديد من المفكرين في العالم الإسلامي لـ «ت» دافعة إما بمحاولة تفحصها أو التكيف معها. فالحدائق كمنهون لم ينبثق من نصوص القرآن الكريم أو السنة النبوية ولم يتم بتقديم نظرة أصلية تستحضر مقاصد تلك النصوص أو غاياتها، بل طيح النهج المقارن مع الغرب وتبناه واحتكم إلى منطقتهم في كثير من الأحيان.

ودعت العديد من الكتابات إلى التفسير وتبني التقمّ والتعدّن بمفهومي الغربي السائد للخروج من حالة الضعف والتخلف الذي منيت به المجتمعات المسلمة آنذاك. ولجأ أصحاب هذا الاتجاه إلى تأويل العديد من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وفق الفلسفات السائدة آنذاك ويظهر ذلك جلياً في النصوص المتعلقة بالمرأة على وجه الخصوص. كما برز اتجاه الاستقلال الدلالي للنص وحرية التلقي في الفهم والتأويل، بل واعطاه الحرية الكاملة للمؤول في النظر إلى النصوص واعتبارية تلك الاستقلالية مهما بلغت تجاوزاتها.

... فالدين يقدم افتراضاً يوحي إبحاه والعلم الإنساني يتخذة فريضة عمل ينبغي التحقق منها في الواقع. وهذا يعني أن التفسير هو اكتشاف واكتناه الواقع فلا يعود سبيلاً نازلاً من النص إلى الواقع وإنما يندو سبيلاً صاعداً من الواقع إلى النص، بهذا تتصوب رؤيتنا إلى الدين إنه وليد الواقع ناشئ منه واليه يعود. وبهذا يتوضع الدين كعلم إنساني وما تحول التولوجيا "علم الكلام" إلى أنثولوجيا "علم الإناسة" سوى مقدمة لتحويل الدين إلى أيولوجيا" (٤٣٧).

وانطلقت العديد من تلك الاتجاهات التأويلية إلى بعض الدوائر الفكرية في المجتمعات المسلمة عن طريق التأثير الحاصل بفكر التنوير والنهضة الوافدة من الغرب إضافة إلى العديد من الفلسفات المصاحبة له.

فقد ذهب مارتن لوتر من خلال فكرة الإصلاح إلى أن كل اختلاف في التأويل معطى سلفاً وموجود في النص، وقال بيهوميونيقياً متعددة الطرق في التأويل تنفيذ في فهم تاريخ التأويل بمسئلتها تداولاً لآفاق الماضي والحاضر (٤٤) في محاولة منه لمحاصرة دور رجالات الكنيسة وسلطتهم المطلقة في التأويل. وهكذا أسهم انتشار اليروثوستاني في نشأة ظاهرة الاستقلال الدلالي

٤٣- تأويل أحمد: جدلية القرآن، دار الطليعة، بيروت، ص ٢٠٦.

٤٤- مصطفى تاج الدين: "النص القرآني وإشكالية التأويل"، إسلامية المعرفة، (العدد الرابع عشر)، ١٩٩٨م، ص ١٩.

تطلبا واستزاعها في سلم الإسلام عملية لا تخلو من مخاطر جمة ومخاطر عديدة ومحاولات ضيقة فاشلة، إضافة لا لها من ممارسات لأصالة الفكر الإسلامي.

والفاهيم والتصورات الكلية ليست مثلا أفلاطونية خالدة، ولا هي نيازك تتساقط من السماء من مجال تداول إلى آخر. بل إن التصورات الكلية الملمة لأية دائرة حضارية لها سمتان: بُعد تاريخي بمعنى أن البيئة تفرزها في ظرف تاريخي معين، وبعد جمعي، فهي وليدة جهد جمعي مشترك تلك البيئة. وقد دلت الشواهد والوقائع التاريخية على أن عمليات الاستزاع تنتهي إل مساوى ثلاث متضاربة:

أولاً: تورط خروجا وفنزوا عن منابع الأضياء من الناحية النسبية.

ثانياً: صيف لا طائل من وراءه من الناحية العملية.

ثالثاً: مخاطر جمة من الناحية الأخلاقية.

وهكذا بقي التأويل مشروفا منتحها لخصائص التيارات الفكرية والفلسفية، وبقية ضابطة بحاجة إل جهود متفانرة للترافع على قانون يحكم سميره ويرشده دوره.

خاتمة:

تبنت هذه الدراسة إشكالية التأويل في الأديان، والتي تمتد من أبرز إشكاليات التعامل مع النص في دوائر الفكر الديني المختلفة قديما وحديثا. وكشفت الدراسة عن مدى تأثير الفروقة الاجتماعية والتيارات الفكرية والفلسفة في سير التأويل وتشكل اتجاهاته المختلفة. وأثمرت الدراسة عن حظورة تقمص النتائج الغربية وطرائق تأويلها للصوص الكتابية لديهم، ومن ثم تطبيقها على نصوص القرآن الكريم: دون ادراك للفروق الهائلة بينها. وأبرزت الحاجة الملحة إل الترافع على إطار عام لقانون يضبط اتجاهات التأويل المختلفة في الفكر الإسلامي على وجه الخصوص، ويرشده مسيرها وفق منهج أصيل مستمد من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية.

التأويل إل القول بأن معنى النص يتغير حسب الأحوال الكـ للثقافي والفروق والبيئات الثقافية والعمور المختلفة. فقد يأخذ النص الواحد معاني مختلفة طبقا لمرحل عمر الإنسان وتجاربه الخاصة وبهذا يكون النص مسارفا لتطور الفرد في مراحل عمره ومسارفا لجميع التغيرات في كل عمر (٤٨).

وهكذا انتقلت تلك النظريات بكل ما تحمله من جذور مغايرة لمبادئ الإسلام إل فلسفة التأويل في المجتمعات المسلمة عن طريق كتاب ومؤلفين رأوا في الخروج على ما اجتمعت عليه الأمة الإسلامية لقرون طويلة. حرية في الرأي والفكر لا بد من ممارستها من خلال تأويلاتهم لنصوص القرآن الكريم والسنة.

وتم النظر إل النصوص على أنها وضع بشري ناسب طور الطفولة للمعل ثم أن المثل تجاوز تلك المرحلة فأصبحت النصوص تاريخية توافق المرحلة التي وردت فيها. فأحكام التشريع في القرآن ليست مطلقا ولم تكن تشريع مجرد. عد ح مطلق، فكل آية تتمثل بحدود بدأتها فهي مخصصة بسبب التزيل وليست مطلقة وكل آيات القرآن نزلت على الأسباب أي لأسباب تقتضيها سواء تضمنت حكما شرعيا أم قاعدة أصولية أم نظاما أخلاقيا، إنها أحكام مؤقتة ومحلية تطبق في وقت محدد وفي مكان بعينه.. وبوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم انتهى التزيل وانعدم الرحي ووقف الحديث الصحيح وسكنت بذلك السلطة التشريعية الإلهية (٤٩).

إن محاربة أصحاب هذا الاتجاه تنصب على نقل وترجمة النتائج اللفظية الغربية. بحثا فيقروها لنصوصهم الكتابية ومن ثم تطبيقها على نصوص الكتاب والسنة دون تمييز بين الفوارق الهائلة التي لم تخف على الرسيس أنفسهم بين تلك النصوص وبين القرآن والسنة. إضافة إل أن النتائج يطبقونها لها بعمان: بعد اجتماعي وبعد ثقافي، وفي تعبير عن البيئة والحاجة التي بدعت إل ظهورها، فعملية

4٨- انظر محمد خمرزور: الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط ٢٠١١، ص ٥٨٠، يقول الكاتب في هذا السياق: "إن التشريع الإسلامي تشريع مدني إنساني حثيفي يتطور ويتناسب مع رغبات الناس ورجوات تطوّر التاريخ والاجتماعي والاقتصادي والسياسي ويفر بإعتراف الناس... ص ٥٨٠، وانظر للكوكور حسن حثيفي، التراث والتجديد... موقفا من التراث القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، ص ٣٠٣، ط ١٩٨٧، ص ٣٣ وما بعدها.

4٩- محمد سعيد المشاوي: معالم الإسلام، القاهرة، ١٩٨٩، ص ١١٢ وما بعدها. وله مؤلفات أخرى تدور حول ذات الأفكار والأطروحات، انظر على سبيل المثال: الخلافة الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٠، والتجديد من الأضلة على هذه الفولات، راجع: نشر حامد أبأ زيد، نقد الخطاب الديني، دار سينا للنشر، ص ٢١٩٩٢، ص ٨٢ وما بعدها.